البداوة والحضارة فى القرآن الكريم

الدكتور صالح الشماع

ان سير التقدم البشرى يستدعى أن يتطور الانسان من المجتمع القبلى البدوى الى مجتمع مستقر يضم أفراده اليه على أساس قومى او اتحادى او عقائدى ، كما هو معروف فى المجتمعات المتحضرة التى عرفها الانسان الى اليوم • وان مهد الاسلام[1] ظهر فى مجتمع قبلي بدوى دون شك ، لكن هنا نجد عظمة الاسلام وعظمة الدعوة السمُوية ، فعلى الرغم من الارضية البدوية جاء الاسلام يدعو الى حياة الاستقرار المتحضرة ويهاجم الاعراب البادين فى البوادى والواحات على أنهم أشد كفراً ونفاقاً من أهل المدن[2] وانهم لا يعلمون الاسلام الا اسما اذ لا يدخل الايمان الى قلوبهم الا بعد جهد ، « قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان فى قلوبكم •• » (الحجرات ، ١٤) •

سكن العرب قبل الاسلام شبه الجزيرة وتخوم العراق وسورية فى دولتى اللخميين فى الحيرة والغساسنة فى الشام • وكان هناك فى اليمن ذات الحضارة العريقة دولة شبه مستقلة يحكمها « الابناء » وهم اخلاف جيش

---

(١) « مهد الاسلام » هذا هو عنوان كتاب أخرجه المستشرق لامنس H. Lammens, Le Berceau de l'islam. Rome, 1914 وتحدث فيه عن الثقافة العربية والشعر العربى قبل الاسلام وتعرض فيه الى موضوعات التلصص وأهل الصعلكة وامور اخرى قامت دون شك على تحقيقات لغوية تدل على ذكاء مؤلفها ، الا ان الغاية البعيدة من كتاب المؤلف هى الطعن فى الاسلام واظهار انه نتاج عقل بدوى وروح قبلية • واننا جريا على الحديث المأثور « اطلب العلم ولو فى الصين » لا يسعنا الا التنبيه الى ان امثال لا منس هم سبة فى جبينى الاستشراق والعلم الغربيين ، والقول ان الاسلام نتاج البداوة ولا يصلح الا لاهل البدو هى فكرة مفرضة ، وغرضنا من مقالنا هذا اظهار فسادها •

(٢) التوبة (٩٧) انظر تفاسير الآية فى كتب التفسير •

فارسى استعمر اليمن وتزاوج مع أهليه وظل على علاقات واهية بدولة الاكاسرة • وكان العرب فى دويلاتهم هذه او فى واحاتهم الكبيرة وملتقى طرق قوافلهم كمكة ويثرب والطائف او فى ما سوى ذلك يعيشون فى مجتمعات تقوم على أساس تنظيم قبلى والروح العشائرية هى السائدة من الحيرة الى صنعاء ومن البحرين الى الشام • وحتى حين وجدت الاحلاف[٣] فان الاستقلال النسبى لكل قبيلة لم يزل ؛ كل ما فى الامر ان سكان الواحات الكبيرة وجدوا ان حياة الاستقرار شبه المتحضرة التى يعيشونها لابد لها من القضاء على جانب من التنظيم القبلى البدوى للمجتمع • ولئن اختلف ساكن الحيرة أو اليمن أو يثرب عن أهل الوبر البادين والعرب الرحالة فان الاختلاف لم يقض على القبلية نهائيا عند أهل مكة أو غيرهم ، وظل أهل مكة ويثرب عبارة عن مجموعة قبائل اذا نظرنا اليها بمنظار الامم المتحضرة المستقرة • فالانتساب الى هذه القبيلة أو تلك ظل هو هو فى المدن وفى البوادى ، والنعرة أو العصبية القبلية لم تتغير ، والدين الوثنى وعلاقاته بالعفاريت والارواح وما يعرف بالنزعة الحيوية[٤] هذه كلها اشترك فيها العرب على تفاوت فيما بينهم هنا أو هناك •

ونظام الثأر فى الجاهلية هو الآخر شارة لمجتمع بدوى قبلى ، فالثأر لا يشترط الاقتصاص من القاتل نفسه ، وانما قد يؤخذ غير القاتل بجريرة لا دخل له فيها سوى اشتراكه مع القاتل أو المجرم بالنسب أو المصاهرة أو

---

(٣) صحيح ان القبيلة تقوم على أساس الدم وعلى أساس جد مشترك ، لكن اتسعت القبيلة العربية وضاقت • فقد عرف العرب التحالف بين القبائل كما حدث فى شباب الرسول (ص) قبل البعثة « شهدت فى دار عبدالله بن جدعان حلفا لو دعيت الى مثله فى الاسلام لأجبت ، وكان هذا حلفا من خمس قبائل ، وحين ظهر الاسلام كانت مكة محكومة من وجوه عدد من القبائل المتحالفة فيما بينها البعض للسقاية والآخر للرفادة وثالث للواء وهكذا • انظر مثلا لسان العرب ، مادتى حلف ، فضل •

(٤) Animism هذه نزعة معروفة عند مختلف الشعوب البدائية وفيها يضفون مظاهر الحياة على الكائنات المادية كالصخور والبحيرات والينابيع والابار ، ومثل هذه العقائد الدينية نجدها عند اهل مكة ويثرب قبل الاسلام كما نلاحظها عند غيرهم من بدو الصحراء •

الجوار أو الولاء أو التبنى ، وكل هذه موازين تشيع عند أهل القبائل والبدو ، ولطالما فنيت قبيلة أو اخرى واندثر حى أو آخر نتيجة هذه الثارات .

والشعر الجاهلى وهو خير وافضل ما تبقى لنا من تراث عقلى قبل الاسلام يدل ، اذا نظرنا فى موضوعاته من فخر وهجاء ومديح ، على روح قبلية لا تعرف الا التنابز بالالقاب والمكابرة ولو كذبا والاطراء ولو على حساب الحقيقة . يقول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

وان الضغن بعد الضغن يبدو عليك ، ويخرج الداء الدفينا
ورثنا المجد قد علمت معدّ نطاعن دونه حتى يبينا

ويقول تأبط شرا فى المفضليات :

حمال الوية ، شهاد اندية قوال محكمة ، جوّاب افاق

وقال الحادرة فى المفضليات أيضا :

انا نعفّ فلا نريب حليفنا ونكف شحّ نفوسنا فى المطمع
ونقى بآمن مالنا احسابنا ونجرّ فى الهيجا السلاح وندّعى
ونخوض غمرة كل يوم كريهة تردى النفوس وغنمها للاشجع
ونقيم فى دار الحفاظ بيوتنا زمنا ، ويظعن غيرنا للأمرع[٥]

وفى اشتهار عرب الجاهلية بعلم الانساب[٦] اشارة أخرى الى ما عندهم من اعتزاز بالنظام القبلى .

كما لم يكن عند ظهور الاسلام للعرب دولة بمعنى الكلمة . فقد مر ان اليمن كان فيها الابناء وكان لليمن علاقة ما بفارس . وكانت الحيرة دويلة تابعة مصطنعة اقامها الفرس على تخومهم لتحميهم من غارات عرب الصحراء من ناحية ولتكون جندى حراسة فى وجه امبراطورية الروم ،

---

(٥) لا نقصد هنا الا الاجتزاء بمثل أو آخر على الادلة التى نعتمدها ، والا ففى المعلقات والمفضليات ودواوين شعراء الجاهلية وفى الامثال للميدانى وفى القرآن وكتب التفسير الشىء الكثير ، وكل هذا لا محل له فى مقالة .

(٦) عرف عن ابى بكر خليفة رسول الله انه كان رجلا نسابة قبل اسلامه اى انه كان عالما بالانساب يعرف كثيرا من تفرعات القبائل وشجرات النسب . ولا يزال كثير من الاشخاص فى شتى الشعوب المتحضرة اليوم يحتفظ بشجرة ما لنسبه ، لكن شجرات النسب الشخصية هذه هى صورة مخففة لعلم الانساب القبلى .

وكان الحال هو نفسه بالنسبة الى دولة الغساسنة • وفي مكة كان هناك تحالف بين القبائل وكان الملأ من قريش أى ساداتها يحكمون وتحركهم مصالحهم المالية الى التعاون ، لكن دون ما قانون مكتوب أو ان يكون هناك رئيس بمعنى الكلمة بل كان هناك وجهاءهم اشبه بشيوخ القبائل يتعاونون تعاونا وقتيا • وفى يثرب كانت قبائل اليهود ـ النضير وقينقاع وقريضة ويهود خيبر وغيرهم ـ منشقة على نفسها ، كما كانت قبيلتا الاوس والخزرج مهدودتى القوى اثر الحروب الطاحنة بينهما ولم يكن لهؤلاء جميعا دولة تحكمهم •

ونظام الزواج وتفضيل ابنة العم أو ابنة الخال والاستنكاف من التزوج بنساء قبائل أخرى واعتبارهن شبه أجنبيات هو الآخر يدل على السنة البدوية والطبيعة القبلية •

هذه أمثلة قليلة وأحكام سريعة على وضع عرب الجاهلية • فهل كان الاسلام استمرارا لكل هذا أو كان ثورة وانقلابا ؟ هل الاسلام ـ كما يريد له اعداؤه ويكيد له الكائدون ـ هو دين البداوة أو انه رسالة تدعو الى الحياة المستقرة والى تنظيم المجتمع على أساس مقبول عند أهل الحضارة والعمران ؟

جاء الاسلام رحمة للعالمين ، وقد جاء ثورة على نظام القبيلة ، وعلى التركيب الاجتماعى المستند الى القبيلة وتشكيلاتها • وحسبنا فى بقية هذا المقال الاشارة الى ما اوجده الاسلام منذ عصر الرسول مما يعتقد كل مسلم صادق العقيدة انه يصلح لكل الناس وفى جميع الاعصر رغم التطور الطبيعى • واننا نقول « ما اوجده الاسلام » ونقصد من ذلك الى ان الاسلام يقف وجها لوجه امام الوثنية الجاهلية وهو على طرفى نقيض معها ، وبالتالى فنظريات كنظريات لامنس المدعية ان الاسلام هو ابن الجاهلية ووليد الظروف البدوية الصحراوية باطلة عندنا وان دلت على شىء فهى تدل على وجه من وجوه الاستشراق • وفيما يلى نعد تركيبات اجتماعية أربعة اوجدها الاسلام ليزيل تركيبة القبيلة ـ وقد رأينا أعلاه ان القبيلة هى نظام الحياة الاساسى فى المجتمع الجاهلى فى بدوه وحضره • هذه التركيبات الاسلامية هى :

أولا : الفرد • اعطى الاسلام قيمة للفرد لم تكن فى الجاهلية أبدا • يذكر لنا المستشرق الاسكوتلاندى المعاصر و•م•وات[٧] فى كتابيه عن حياة الرسول فى مكة والمدينة ان مكة قبل الاسلام ـ وقد يعمم الحكم على المدن الاخرى الشبيهة بمكة ـ أخذت تفسح المجال لظهور النزعة الفردية ، وان هذه النزعة لا تكون لها حياة الا على انقاض النظام القبلى • ويستدل وات على ظهور امثال حلف الفضول وضعف الروح الدينية عند أهل مكة وانهم لم يحتفظوا بالاوثان الا جلبا للمال من أهل البادية • وهذا كلام يستند دون شك الى وقائع كثيرة ، لـكنه لا يكفى مطلقا للقول بان الجاهلية هى التى أخذت باعطاء قيمة للفرد وليس الاسلام • اننا نعتقد ان من أهم علامات الثورة الاسلامية على الجاهلية الوثنية هو اقرار القرآن لقيمة الفرد وجعله هو المسئول عما اقترفت يداه :

كل نفس بما كسبت رهينه

يوم لا ينفع مال ولا بنون ، الا من اتى الله بقلب سليم

لـكم دينكم ولى دين

ان كل نفس لما عليها حافظ

يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه •••

ويوحى الله الى ابراهيم بقوله : « انى جاعلك للناس اماما » •

فيستفسر ابراهيم من ربه هل ان هذه الامامه تشمل ذريته أيضـــا فيكون الجواب : « لا ينال عهدى الظالمين » (البقرة ، ١٢٤) •

ونقرأ فى البقرة مرة اخرى (١٤٠ ، ١٤١) عن المسئولية الفردية :

أم تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط كانوا هودا أو نصارى ، قل أأنتم أعلم أم الله •••

---

(٧) W. Montgomery Watt, Muhammad at Mecca. Medina, Oxford, 1956

ان ابحاث هذا المستشرق عن الاسلام كبيرة الدلالة وهى خطوة الى الامام اذا قيست بأبحاث جيل سابق هو جيل لا منس ، لـكن وات نفسه ينتهى دائما الى ان الاسلام هو صورة ثانوية للمسيحية وان المسيحية هى الصورة المثلى ، مع العلم ان خير أبحاثه هى عن الاسلام وأبحاثه عن المسيحية لا يكاد يسمع بها انسان لتفاهتها أو جانبيتها •

تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون .

والآن لننظر فى تركيبة اجتماعية ثانية عرفها الاسلام وما عرفتها الجاهلية بالصورة نفسها :

ثانيا : العائلة . ان ما جاء به الاسلام من أنظمة وتشريعات للوراثة والزواج والطلاق والتربية وشئون اخرى تتصل بعلاقات الاباء والابناء والازواج تدلنا على اهتمام الشريعة السمْوية باقرار وحدة العائلة لا بمعناها القبلى الجاهلى بل بمعنى مقبول عند أهل الحضارات البارزة ويقبله الانسان المثقف . العائلة فى الاسلام هى أساسا الزوجان وأولادهما ، ثم الابوان والاخوة ، ويلى هؤلاء طبقة ثانوية من ذوى الارحام ممن تتطلب العلاقات الطبيعية اعتبارهم والتعاون معهم . ونظام العائلة الاسلامى لا علاقة له بالمرة بنظام العائلة أو العشيرة الجاهلى . فانظمة الولاء والتبنى والجوار لم تعد ذات قيمة فى التشريعات الاسلامية . ولئن تكونت طبقات الموالى من غير العرب فى المجتمعات الاسلامية فان نشوءهم كان فى ظروف خاصة ولاسباب ادارية أو أسباب وقتية ، لننظر فى هذه الآيات الكريمة :

« ... واولو الارحام بعضهم اولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين ، الا ان تفعلوا الى اوليائكم معروفا ... » (احزاب ٦) .

« ما كان محمد ابا احد من رجالكم » (احزاب ، ٤٠) .

وفى الآية الرابعة من سورة الاحزاب نفسها نقرأ :

« وما جعل ادعياءكم ابناءكم »

ثم نقرأ :

« ادعوهم لآبائهم ... فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم ... »

وان من يراجع الالفاظ التى هى من مثل « ولاء » ومن اصلها يعلم ان الولاء الاسلامى هو لفظ يشبه فى معناه لفظ « الاخاء » والحب فى الدين ، وليس المولى المسلم مفهوما فى سياق جاهلى قبلى ابدا .

كما جعل الاسلام طاعة الابوين وحنان البنوة والزوجية يأتيان بعد طاعة الله وعلامة على طاعة الانسان لله :

ووصينا الانسان بوالديه ... (لقمان ، ١٤) .

والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة اعين ... (الفرقان ، ٧٤) الخ .

ان الاسلام الذى هدم نظام القبيلة التى تقوم على أساس الدم مباشرة أو بصورة غير مباشرة ـ كما فى الولاء والتبنى ـ اقام مقام ذلك نظام العائلة بمعناها المحدد واعطى بذلك متنفسا للعواطف البشرية الطبيعية . وتحديد الاسلام للزواج وحمايته للايتام وواجبات الدولة والفرد فى شئون العائلة المختلفة لهى جميعا الدليل الواضح على ان الاسلام قد اوجد تركيبة العائلة بعد ان لم تكن . فقد كان للجاهلى عدد غير محدد من الزوجات كما كان هناك نظام تعدد الازواج فى آن واحد ، وكثير من صور النظام العائلى فى الجاهلية لا يختلف عن الزنا ، وقد جاء الاسلام محرما الزنا وما يقرب منه مما يتصل بعدم الحشمة[٨] .

ثالثا : الدولة . « اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم » (النساء ، ٥٩) .

وهذه تركيبة اجتماعية سبق ان ذكرنا ان الجاهلية قبل الاسلام مباشرة لم تعرفها معرفة لائقة . ففى اليمن والحيرة والشام كان الامر بيد اجنبية تقريبا وفيما عدا ذلك كان النظام القبلى البحت ووجوه القبائل والملأ منهم هو الذى يحكم بصورة شخصية وليس حسب شريعة أو دستور . ومنذ دخل الرسول الى المدينة أخذ من خاصته واهل بيته ومن يعتمد عليهم من اتباعه معاونين له وهكذا جمع فى عمله بين رسالة النبى ووظيفة رئيس الدولة وسن بذلك دستورا للمسلمين ، وقد اتبعوه ، وان كانت لهم اختلافاتهم فى الحكم اقتضتها طبيعة النفوس وطبيعة الظروف ، لكن الذى يعنينا هو ان الاسلام اقر واجبات للدولة والحكومة لا نجد لها مثيلا فى مكة قبل الاسلام ولا فى يثرب أو غيرهما من أجزاء شبه الجزيرة العربية . والدولة الاسلامية تقوم على العدل والخير والاحسان وليس على أساس

---

(٨) انظر الفصول الثالث والرابع والحادى عشر والثانى عشر من رسالة المؤلف Ethical System Underlying The Quran, 8uebingen, 1959

الحسب والنسب والمال .

رابعا : الامة . وهذه هى التركيبة الاسلامية الرابعة وهى اوسع نطاقا من جميع التركيبات السابقة وهى تضم فيما بينها فى رباط شامل . رباط يقوم على أساس العقيدة والشريعة السموية وليس على أساس من العرقية الضيقة أو الحمية الجاهلية القبلية .

« انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ... »

لقد عرف عرب الجاهلية هذا التقابل « عربى ـ اعجمى » لكن هذا التقابل كان مفهوما فى نطاق اللغة ولم يكن معروفا منه انه يشير الى « امة عربية » . بل حتى اشارات القرآن الى انه بلسان عربى مبين هى اشارات الى الناحية اللغوية فقط . ان الاسلام جاء ليوحد بين العائلة البشرية على أساس الرباط الروحى .

وانه ندر بين المجتمعات من يعرف التآخى بين الشعوب ما عرفته الشعوب الاسلامية فى مختلف القارات . ولئن عرف اليهود تآخيا فيما بينهم فان العقيدة اليهودية لا تختلف عن الحمية الجاهلية ، واساسهما هو العرقية القبلية بأضيق معناها ، اما الاسلام فهو رسالة الله الاخيرة الى الانسان ، وقد جاء محمد (ص) رحمة للعالمين .

« بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى » .

« يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم » .

ان الاسلام لا ينكر المعانى الحسنة فى القومية ، انما هو ينكر التعصب الاعمى ولا يقبل بالنعرات التى تقوم على أساس الكبرياء الفارغة والزهو الفارغ . حاشا ان يكون للاسلام وشيجة بالتعصب فهو دين التسامح والاخاء والاشتراك فى عبادة خالق واحد[٩] .

---

(٩) طرحنا فى مقالنا هذا موضوعات متعددة للمناقشة نرجو ان نسمع تعليق العلماء الافاضل عليها ولنا عود اليها ان شاء الله .